المستهلكات المستحدثة بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني- القهوة أنموذجا

Innovative Consumers in the City of Algeria during the ottoman era- Coffee as a model

1- مليكة عرايبي*، مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ ودورها في التنمية الوطنية - جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة (الجزائر)
maraibi@univ-dbkm.dz

2- عبد القادر دوحة، جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة (الجزائر)
aek.douha@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022/09/02 تاريخ القبول: 2022/10/17 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

عرفت مدينة الجزائر خلال العهد العثماني جملة من التحولات الاجتماعية المستمرة التي مس جزء منها قيم المجتمع الجزائري وأنماطه المعيشية، كغيره من دول المشرق والمغرب بداية من القرن السادس عشر ميلادي، برزت في شيوع أذواق جديدة ومستهلكات مستحدثة منها القهوة، حيث لم يكن تعاطيها مرفوضا كليا، ما ساهم في شيوعها وانتشارها بصورة واسعة، رغم التحفظات التي أبدتها السلطة الدينية وهو ما أدى لسجال فقهي وجدل واسع بين مختلف الفقهاء بين محلل ومحرم لشرب القهوة.

كلمات مفتاحية: المستهلكات المستحدثة، القهوة والمقاهي، الفقهاء، مدينة الجزائر، العهد العثماني.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

During the Ottoman era the city of Algiers witnessed a number of continuous social transformations, part of which affected the values of Algerian society and its lifestyles, like other countries of the East and Maghreb, beginning in the sixteenth century. New tastes and new consumers emerged, including coffee. At that time, when its consumption was not completely rejected, it contributed to its widespread and widespread, despite the reservation that were supported by the religious authority. This led to a jurisprudential controversy and a wide controversy between the various jurists and between the lawful and the forbidden for drinking to coffee.

Keywords: New Consumer products, Coffee and coffeehouses, Jurists, the City of Algiers, the Ottoman era.

- **مقدمة**

سبق أن أثار حقل الغذاء والأشربة والمستهلكات عامة وعلاقة الفقه بهذا المجال، فضول واهتمام الباحثين في عدة علوم منها الدراسات التاريخية لأهمية الأطعمة والأشربة في حياة الإنسان كمرحلة تولي عناية خاصة بالحياة اليومية المعتادة للمجتمع. وتعتبر دراسة القهوة من بين الموضوعات الأساسية المطروحة حاليا في هذه البحوث، ضمن ما بات يعرف لدى الباحثين والمؤرخين المعاصرين بتاريخ المنهات والمشروبات وتاريخ المستهلكات المستحدثة التي تفتقر إليها الدراسات التاريخية بالمكتبات الوطنية والعربية، رغم أنها تعكس جزء هاما من الثقافة الاستهلاكية باعتبارها حاملة لدلالات رمزية وقيمة اجتماعية من جهة، وتشكل معيارا يقيس الوضع الفكري والإصلاحي والأسس والمسوغات التي كونت ذهنيات المجتمع لقبول أو رفض ما استجد على صعيد الأذواق والمستهلكات من جهة أخرى كمرحلة تعكس مظاهر الاستمرار والتحول في الخصائص الاستهلاكية لمجتمع مدينة الجزائر وما يرتبط بالبنية الاقتصادية.

يسعى هذا المقال الذي يبحث في تاريخ المستهلكات الجديدة وما أثير حولها من جدل واسع حول حليتها وحرمتها للتعريف بجذور هذه المواد الاستهلاكية والكيفية التي دخلت بها القهوة إلى مدينة الجزائر خلال هذه الفترة التي لاشك في أنها ساهمت بقدر وفير في تغيير الأذواق الاستهلاكية وتجديد الذهنيات، راصدين في ذات الوقت المنحى الاستهلاكي ومدى انتشار شرب القهوة إذا ما علمنا أن

التجارب التاريخية كثيرا ما توحي بوجود انفصال بين الخطابات الفقهية والسياسية وموقف المجتمع التي تؤسس إما لرفض أو قبول استهلاك المسكرات والمنبهات والمستهلكات المستحدثة عموما وبين الممارسة التي كثيرا ما كشفت المتون المصدرية فيها عن انتشار تناول هذه المواد في مختلف الأوساط متجاوزين هذه الخطابات خاصة تلك الخطابات المحرمة لتناول هذه المواد. وعليه، إلى أي مدى ساهمت القهوة في تغيير ملامح الحياة الاجتماعية بمدينة الجزائر؟ وهل كانت القهوة مشروبا نخبويا عاكسا للترف أم مشروبا شعبيا تذوقه الجميع؟

وكيف تفاعل الفقهاء مع هذا المشروب الجديد في خضم التطورات التي مر بها مجتمع مدينة الجزائر؟ وفيما تتمثل دوافع السجال والجدل الفقهي الذي دار حول مسألة القهوة؟

1. تاريخ ظهور القهوة بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

المعروف أن القرن السادس عشر ميلادي في عمومه كان قرنا لظهور العديد من المستهلكات الجديدة، فقد كانت القهوة، والدخان، والشاي أحد أبرز السلع والمواد الاستهلاكية التي غزت الأسواق المحلية والدولية ولاقت رواجا كبيرا وتبوأت مكانة واسعة، كمشروبات ومنبهات قوية، على الرغم من أنها كانت محل ارتياب بسبب تأثيرها على الوسط الاجتماعي ما أقلق بعض الفقهاء الذين أبدوا امتعاضهم من تناولها، ولكن المشكلة التي يعالجها هذا الجزء هي مشكلة تحديد دقيق لبدايات ظهور هذا المستحدث بمدينة الجزائر.

1.1 التعريف اللغوي للقهوة.

يجدر بنا في البداية أن ننطلق من كون البن والقهوة من المصطلحات والمفاهيم التي عرفت تطورا لغويا، علما أن مدلولها المتداول اليوم لم يكن موجودا في المعاجم العربية القديمة، وإنما وجدت بمعاني أخرى بنفس المصطلحات. فكلمة البن جاءت من المصدر بن وتعني الريح الطيبة كرائحة التفاح ونحوها[1]، أما القهوة فتعرف في أصل اللغة كمشروب وافد بكونها من أسماء الخمر، لأنها تفقد شاربها رغبته وشهوته في تناول الطعام[2]، ويتفق محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي صاحب عمدة الصفوة في حل القهوة مع ابن منظور حول التأثيرات السلبية للقهوة على بدن شاربها إذ تفقدهم الرغبة في الأكل مشبها إياها بالخمر في هذه الحالة، حيث أشار إلى اشتقاق اسم القهوة: "...من الاقها وهو الاحتوا أي الكراهة أو من الاقها بمعنى الاقعاد من اقهي الرجل عن الشيء أي قعد عنه وكل هة كل شيئ والقعود

[1]- ابن منظور، **لسان العرب** ج 1، دار المعارف، بيروت، د. ت، ص 361.

[2]- ابن منظور، **لسان**...، ج 5، مصدر سابق، ص 376.

عنه ومنه سميت الخمرة قهوة لأنها تقهي أي تكره الطعام أو تقعد عنه.."[1]. فكان هذا التعريف الذي شبه شرب القهوة بالخمر سببا في ظهور السجال الفقهي بين العلماء حول تحريم القهوة وتشبيهها بالخمر. وكمرحلة ثانية أطلق اسم القهوة على البن وعلى المكان الذي يعد فيه هذا المشروب أي المقاهي[2]، وقد كان أول من أورد الكلمتين بمدلولهما الحالي الطبيب العربي داوود الإنطاكي الذي عرف" البن بأنه ثمر شجرة باليمن وبأن شراب هذه الثمرة التي تعرف بالبن قد شاع باسم القهوة إذا حمص وطبخ ناضجا وهو المدلول الشائع حاليا"[3].

وإذا ما بحثنا في الكتب الطبية في العصر الحديث نجد ابن حمادوش يعرف في كتابه كشف الرموز في بيان الأعشاب والعقاقير البن: "بأنه القهوة وهي حارة في الأولى يابسة في الثانية"[4] دون أن يزيد على ذلك شيئا.

2.1 دخول القهوة إلى مدينة الجزائر.

أما عن تاريخ ظهور القهوة بمجال المغرب الإسلامي والجزائر تحديدا، فمن الصعب تقديم معلومات دقيقة حول اللحظة التي دخل فيها هذا المشروب الجديد إلى مدينة الجزائر ولا تاريخ ميلاد أول مقهى بالمدينة، لكن بعض الدراسات التاريخية أكدت حضور المشروب الجديد فعليا في منازل وشوارع المدينة[5] الذي تم تحديثه إلى جانب عادات استهلاكية أخرى كالدخان والشاي في مدينة الجزائر في العهد العثماني، وأول من نبه لظهور القهوة ووجود المقاهي بها هو الأب دان le père Dan في كتابه عندما زار الجزائر سنة 1633م، معرفا إياها بكونها من المشروبات، سوداء اللون مثل الحبر تحل

---

[1]- عبد القادر بن محمد الأنصاري الجزيري الحنبلي، **عمدة الصفوة في حل القهوة 1501- 1600**، المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 4590، ص 10. https//:gallica.bnf.fr

[2]- جمال الدين القاسمي، **رسالة في الشاي والقهوة والدخان**، د. د. ن، د. م. ن، 1974، ص 14.

[3]- أروى أحمد أحمد عبد الله الخطابي، **تجارة البن اليمني (ق 11- 13هـ/ ق 17- 19م) دراسة تاريخية**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة صنعاء، اليمن، 2004، ص 202.

[4]- عبد الرزاق محمد بن حمادوش الجزائري، **كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب**، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1996، ص 76. يقول الجزيري في هذا الشأن "أن الكثير من الأطباء وغيرهم أنه من طبع القهوة أنها حارة يابسة وقال آخرون باردة يابسة، ويعتبر ذلك من مذهب أهل الذم لها، فإن من يقول بالبرد واليبس يقيسها على طبع الموت...". للمزيد أنظر: الجزيري، مصدر سابق، ص 6.

[5] -Omar Carlier, "Le Café maure. Sociabilité masculine et effervescence citoyenne (Algérie XVIIe- XXe)", **Annales. Economiques, Société, Civilisations**, 45°année, N°4,1990, p 980.

البهجة للنفس، وتطرد الغوا ت، وقد كانت المقاهي توفر هذا المشروب المحبب الذي سمي عند البعض نظرا لمميزاته الكثيرة بالمشروب المقدس[1].

إن التدقيق في المصادر والدراسات التاريخية يقودنا لعدم التسليم بما ذكره الاب دان حول تاريخ دخول القهوة بالجزائر في ظل معطيات كثيرة تقودنا للقول بأن ظهور القهوة في هذا المجال كان سابقا لهذا التاريخ، إذا ما علمنا أن ظهورها وانتشارها باليمن كان في: "أواخر القرن التاسع وإلى هذا الآن من القرن العاشر"[2] ، وعلى أساسها رأى الباحث الفرنسي فرناند بروديل بأن انتشار استهلاك القهوة في جميع أنحاء المناطق الخاضعة للسلطة العثمانية كان قبل نهاية القرن 16م، بما في ذلك دمشق وحلب، والجزائر، محددا تاريخ 1510م كبداية لظهورها في القاهرة[3]، وهو نفس ما ذهب إليه عبد القادر الجزيري في عمدة الصفوة في حل القهوة بقوله: "...في العشر الأول من هذا القرن (10ه)، كانت تشرب في نفس الجامع الأزهر برواق اليمن، يشربها فيها اليمانيون..."[4]، وبعدها بأربع عقود ما يقارب عام 1555م استقرت القهوة كمشروب في العاصمة العثمانية اسطنبول [5]، ورغم أن فرناند بروديل لم لم يحدد طريقة دخولها إلى الجزائر وتونس، فالراجح أن يكون ذلك عن طريق العناصر البشرية التي وفدت إلى الجزائر من مختلف المناطق العثمانية في مقدمتها المجندون من الجيش الإنكشاري عقب انضمامها للدولة العثمانية.

ويمكن أن ندعم هذا الطرح، الذي يفيد بظهور القهوة كمادة استهلاكية في الجزائر قبل القرن 17م أي في النصف الثاني من القرن 16م عبر الطرق البحرية والبرية بناء على ذلك التواصل الموجود في إطار العلاقات الثقافية (الرحلات العلمية، وركب الحج الجزائري) والاقتصادية بين بلدان المغرب والمشرق وهي علاقات قائمة بين الجانبين قبل القرن 17م، وتتجلى في دور:

1.2.1 طلبة العلم والمتصوفة والحجاج:

---

[1]- Père. Dan, **R. P. P. Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, 2e éd, Paris, 1646, p 282- 283.

[2]- الجزيري، مصدر سابق، ص 9.

[3]- فرناند بروديل، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن15 حتى18- الحياة اليومية وبنياتها- الممكن والمستحيل**،ج1، ترجمة: مصطفى ماهر،المركز القومي للترجمة،القاهرة،2013،ص 342.

[4]- الجزيري ، مصدر سابق، ص 10.

[5]- بروديل، مرجع سابق، ص 342.

تذكر المصادر أن أول ظهور للقهوة في مصر كان في الجامع الأزهر مطلع القرن 16م حيث استعملت من طرف طلبة العلم اليمنيين الذين درسوا في الجامع واتخذوا رواقا لهم به عرف برواق اليمنيين: "في العشر الأول من هذا القرن (10ه)، كانت تشرب في نفس الجامع الأزهر برواق اليمن يشربها فيها اليمانيون و من يسكن معهم في رواقهم من أهل الحرمين"[1]. ومن دون شك هذه الحياة العلمية بمصر استقطبت طلبة العلم من مختلف البلدان الإسلامية في مقدمتهم الطلبة المغاربة (الجزائريين) الذين قصدوا الجامع الأزهر لكسب العلم والحصول على الإجازة، فكانت بيئة مناسبة لاحتكاكهم بالطلبة والعلماء اليمنيين في الجامع أو من خلال احتكاكهم بطلبة آخرين كانت لهم علاقة مشتركة بينهم، والراجح أنهم تأثروا خلالها ببعض عاداتهم كشرب القهوة التي شاع استهلكها بين الطلبة وفي كل مكان من القاهرة لأنها لم تحرم في تلك الفترة، بدليل ما قاله الجزيري: "...وكان يشربها معهم من أهل الجامع من أصحابنا وغيرهم خلق لا نحصيهم ولم يزل الحال على ذلك وشربت كثيرا في حارة الجامع الأزهر وبيعت جهرا في عدة مواضع ولم يتعرض أحد مع طول المدة لشربها ولا أنكر شربها لا لذاتها ولا لوصف خارج عنها..."[2]. والأكيد بعد اتخاذهم لهذا الشراب نقلوها أثناء عودتهم إلى مناطقهم الأصلية منها مدينة الجزائر لتنتشر بعدها بين الناس. وليس هذا فقط، بل يفترض الباحث الجزائري عمر كارلي Omar Carlier بأن انتشار القهوة بمدينة الجزائر منذ القرن السادس عشر كان بواسطة أتباع الطريقة الشاذلية[3] الذين أخذوا عن إخوانهم الصوفيين اليمنيين من المذهب الشاذلي عادة شرب القهوة إما أثناء تواجدهم بالحجاز أو عند زيارتهم للجامع الأزهر ثم نقلوها إلى مدينة الجزائر[4]، ولعل هذا هو السبب وراء تسمية القهوة في الجزائر "بالشاذلية" نسبة إلى الشاذلي[5].

ولفهم هذه الجزئية التي طرحها عمر كارلي نعود إلى بدايات ظهور القهوة في اليمن، حيث تشير المصادر إلى مساهمة مشايخ الصوفية في ظهور وانتشار المشروب الجديد بها، من أمثال الشيخ محمد

---

[1]- الجزيري ، مصدر سابق، ص 10.

[2]- الجزيري ، مصدر سابق، ص 10.

[3]- Carlier, op cit, p 978.

[4]- حاتم محمد محاميد وحاييم نيسيم، "القهوة ما بين التحريم والإباحة: الجدل الديني أواخر العصر المملوكي وبداية العهد العثماني"، **مجلة المجمع**، العدد 13، 2018، ص43.

[5]- محمد الأرناؤوط، **من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي**، دار جداول، بيروت، 2012، ص36.

بن سعيد الذبحاني[1] والشيخ علي بن عمر الشاذلي الذين كانوا ينتسبون إلى إحدى الطرق الصوفية وبالتحديد الطريقة الشاذلية، وبالتالي ارتبطت القهوة في البداية بالوسط الصوفي الذي كان له الفضل في ظهورها وانتشارها لتأخذ مسارا مغايرا بحلول القرن السادس عشر عندما تمكنت من الخروج من الوسط الديني (الصوفي) أين اقتحمت الفضاء العام للمدن (مكة، القاهرة، حلب، اسطنبول) بظهور المقاهي التي شاع فيها شرب القهوة بين مختلف الفئات الاجتماعية من خاصة المجتمع وعامته حتى المنحرفين والمجرمين، وبذلك لم يعد استعمال القهوة موجه لغرض السهر لقراءة الأذكار وإذهاب النعاس والكسل ولمطالعة العلم[2] بقدر ما أضحت مرتبطة بتحقيق المتعة والاسترخاء لشاربها.

كما يرتبط ظهور القهوة بالجزائر أيضا بمواسم الحج حيث يتوافد الحجاج المغاربة، ويأتي في مقدمتهم الحجاج الجزائريين سنويا على البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج مرورا بأهم الحواضر والمنارات العلمية كالجامع الأزهر. ومما لا مراء فيه، أنهم ساهموا في إدخال البن إلى بلدانهم بشكل أو بآخر بعد تعرفهم عليها في شبه الجزيرة العربية أو مصر، وما يعزز هذا الرأي قول روزي Rozet أن الحجاج العائدين من مكة بعد انتهاء موسم الحج كانوا يجلبون معهم كميات من القهوة[3].

2.2.1 التجل المغاربة:

وقد ساهم التجار المغاربة الذين عملوا في التجارة عبر مصر في نشر ثقافة شرب القهوة في بلدانهم وهذا ما تؤكده الشواهد التاريخية[4]، فكانوا يحصلون على هذه المادة من الموانئ وأسواق الحجاز، أين كانوا ينقلون البن من هناك بعد انقضاء مواسم التجارة أو مواسم الحج أو يحصلون عليه مباشرة من اليمن. ويعتبر ميناء الإسكندرية أحد أبرز الموانئ التي نقل منها التجار المغاربة البن إلى بلدانهم عبر السفن العربية و العثمانية والأوربية، وقد قدرت كمية البن الصادرة من هذا الميناء إلى كل من تونس والجزائر بنحو 9000 كيلوغرام[5]، وهنا نشير إلى أن الجزائر تأتي في المرتبة الثانية بعد تونس من حيث

---

[1]- هو العلامة الشيخ جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بالذبحاني نسبة إلى بلدة ذبحان باليمن، تولى وظيفة الفتوى أو ما تسمى بوظيفة تصحيح الفتوى بعدن اليمنية، وقد اشتهر بالعلم والولاية وبسلوكه لطريق التصوف، وقد اعتبره الجزيري من بين المتصوفة الأوائل الذين عرفوا القهوة واستعملوها ونشروا بعدن. للمزيد أنظر: الجزيري، مصدر سابق، ص8.

[2]- الجزيري، مصدر سابق، ص 8.

[3]- M. Rozet, **Voyage dans la régence d'Alger**, t2, Paris, 1833, p75.

[4]- أندري ريمون، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، 1986، ص 78.

[5]- أحمد أحمد عبد الله الخطابي، مرجع سابق، ص 177.

قيمة التبادل التجاري مع مصر عبر الطرق البرية والبحرية حيث كانت تستلم من 40 إلى 50 فردا- باله- تزن ما يقارب 180 كغ من البن القادم من اليمن[1].

3.1 تجارة البن (نمط تجاري جديد يغزو الأسواق المحلية والدولية):

ما يهمنا في هذا النطاق، تمكن التجار المغاربة الذين اشتغلوا بين الخطوط التجارية التي تربط بين بلدان المشرق والمغرب من إحداث تغيير في نمط وأسلوب المبادلات التجارية وما طرأ بعدها على السوق من تغيرات، وذلك بمزاولتهم لتجارة البن اليمني كما أشرنا سابقا، وتوسيعهم لهذا النشاط الاقتصادي في بلدانهم (القهوة) والذي تحول إلى ظاهرة اجتماعية واستهلاكية وانتشر بسرعة كبيرة في جميع المناطق منها مدينة الجزائر، رغم ما أحاط به من جدل فقهي في بدايات ظهوره في المشرق، وقد ورد ذلك بشكل صريح في قول الورتيلاني في رحلته التي كانت في القرن 17م حول شيوع تجارة القهوة على مدى القرنين التاليين: "ولم يزل أمرها يفشوا شيئا فشيئا ومن بلد إلى بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية وكثيرا من المغربية فيحمل منها في كل سنة من بلاد اليمن لكل أفق من الآفاق شرقا وغربا آلاف من الأحمال فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها من التجارة..."[2].

ويبدو أن توسع تجارة القهوة ونموها بفعل ازدياد الطلب عليها في الأسواق المحلية والدولية كتجارة مربحة ومدرة للأموال، هو الذي جعل السلطة العثمانية بإسطنبول تعمد إلى إصدار مجموعة من الفرمانات التي صنفت البن ضمن السلع الأساسية في مبادلاتها التجارية، حيث احتكرت بهذه الفرمانات تجارة البن لمنع تهريبها والاستئثار بأموالها بعدما حققت لخزانة الباب العالي موارد شبه ثابتة ومن أمثلة ذلك مجموعة من الأوامر الشريفة الصادرة عن الدولة العثمانية في سنوات (1191هـ/1777م، 1175هـ/ 1761م، 1188هـ/ 1774م) والذي جاء بعضها بطلب من أوجاق جزائر الغرب لتجديد الأمر الشريف لهم، وقد نصت في مجملها على إعفاء الكثير من المعاملات التجارية لأهالي الجزائر من الرسوم الجمركية باستثناء القهوة: "... وإن كل من هو من أهل الأوجاق ... أوذن له في الذهاب لبعض الممالك فكل ما يوجد عند من الأموال والأمتعة والبضاعة التي اشتراها من المال

---

[1]- ب. س. جيرار، **وصف مصر- موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر**، ترجمة: زهير الشايب، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت، ص 257.

[2]- الحسين بن محمد الورتيلاني، **الرحلة الورتيلانية- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 322.

المأخوذ من الأوجاق... لا يؤخذ منه رسم الجمرك ولا سائر الرسومات ما عدا رسم القهوة المذكور لا بد لكل أحد أن يعطيه كان من كان..."[1].

لا بد أن تجارة البن في البلدان الإسلامية قد عوضت مكانة تجارة التوابل سابقا التي انتكست عقب تحول الطرق التجارية لطريق رأس الرجاء الصالح، لكن نمو هذه التجارة وتوسعها بدأ يتراجع مع مطلع القرن 18م بنجاح الأوروبيين في إنتاج كميات كبيرة من البن في مستعمراتهم نافسوا بها البن المنتج في اليمن، وبهذا أصبحت الأسواق المحلية تعتمد على الأصناف الجديدة القادمة من هذه المستعمرات لأسعارها المنخفضة[2]، وهو ما سمح لسكان المدن العربية من الطبقة العامة باستهلاك القهوة في منازلهم بشكل تدريجي، والجدير بالذكر أن مارسيليا ومدينة ليفورنو الإيطالية تعتبر من أهم المناطق الأوروبية المصدرة للبن خاصة نحو دول شمال إفريقيا في مقدمتها مدينة الجزائر[3]، فقد أدى هذا التغير في عمومه والمتعلق بتجارة البن إلى نمو دور الأقليات من التجار اليهود الذين تمكنوا من لعب دور الوسيط الاقتصادي والتجاري للدول الأوروبية بتسهيل دخول منتجاتهم كالقهوة إلى الأسواق المحلية عبر مختلف الموانئ خاصة موانئ مدينة الجزائر[4]، بل كانوا أكثر هذه الأقليات إسهاما واحتكارا لهذا النشاط[5].

---

[1]- فرمان من الباب العالي الى الحكام والعلماء والضباط في الاناضول اواخر شعبان 1191هـ/اكتوبر 1778م المجموعة 3190 ملف1 الوثيقة رقم 18، المكتبة الوطنية الجزائرية. كما أصدر الباب العالي في هذا الخصوص فرمانا آخر في عهد السلطان محمود الثاني في 27ماي1825م، مما جاء فيه:"... أوجاق جزائر الغرب ...فحوايجهم الضرورية وأموالهم وأشيائهم لا يتناولهم رسم جمرك ورسومات سايرة ما عدا جمرك القهوة...". المجموعة 3190، ملف1، الوثيقة رقم 35، المكتبة الوطنية الجزائرية.

[2]- بروديل، مرجع سابق، ص ص 347- 348.

[3]- قدمت وداد بيلامي مجموعة من الإحصائيات تبين استحواذ التجار اليهود بتجارة البن بمدينة الجزائر: "من مجموع 794 قنطار احتكر اليهود 451 قنطار من كمية البن،وفي الفترة الممتدة من 1780-1792م استوردوا أكثر من نصف إجمالي كميات 57 % من البن التي دخلت مختلف الموانئ الجزائرية،يأتي التجار الفرنسيين في المرتبة الثانية ويليهم التجار المسلمين في المرتبة الأخيرة".وداد بيلامي، **اليهود والشبكة التجارية في إيالة الجزائر والحوض الغربي للمتوسط، 1686- 1830م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري، 2017- 2018، ص ص 158، 160.

[4]- ريمون، مرجع سابق، ص 173.

[5]- بيلامي، مرجع سابق، ص 160.

وعليه، كان القرن السادس عشر قرنا للتجديد في الأذواق، فقد عرف ظهور القهوة كمادة استهلاكية مستحدثة عم انتشارها في القرنين السابع عشر والثامن عشر على حساب مواد الترف المعروفة سابقا كالتوابل، حيث أرست القهوة عادات وطقوس مغايرة وحققت لجمهورها المتعة والترف، ووفرت للسلطة مصدرا إضافيا لتدعيم موارد الخزينة وتنويع الاقتصاد وهو ما دفعها لتقنين تجارة القهوة والدخان منذ القرن السابع عشر بإخضاعها للرسوم الجمركية.

2. تجليات استهلاك القهوة بمدينة الجزائر.

1.2 شرب القهوة (الفئات الاجتماعية):

لاشك أن انتشار مظاهر شرب القهوة وتعاطي الدخان بين الناس كأحد أبرز ملامح التحول في النمط الاستهلاكي في القرن السادس عشر الذي عرفته مدن عربية كبرى بما فيها مدينة الجزائر التي كانت هي الأخرى تعيش نموا وتطورا وتغيرا كبيرا حولها إلى أكبر العواصم السياسية والاقتصادية شبه المرفهة والمترفة، وهو ما ساهم في هذا الانتشار دون أن نغفل وجود عامل الرغبة والولع لدى الناس بالتجديد والبحث عن المتعة لإزالة الهموم والمشاكل ولتمضية الوقت، وهذا ما وفرته القهوة لشاربيها منذ بداية ظهورها المحتشم والمحدود في زاويا الصوفية في شبه الجزيرة العربية.

وقد تمكنت القهوة بتلبيتها للاحتياجات الأساسية الممثلة في الاسترخاء والراحة وتجديد الطاقة والتقليل من الملل من جذب الناس للإقبال عليها بشكل متزايد بمختلف فئاتهم الاجتماعية، ولو أن الأمر غير واضح لنا، حول ما إذا استهلكت القهوة من طرف جميع السكان في أماكن مختلفة كالشوارع والمنازل منذ البداية؟، لكن في غالب الظن كانت القهوة في بداية انتشارها بمدينة الجزائر متاحة للجميع ولا وجود لتمييز اجتماعي قائم على مراعاة الطبقة والثراء على مستوى المقاهي[1]، فكان يأتي: "البدوي المعوز...فيجلس إلى جانب المغربي الثري...، وإن لم يكن له غليون، يستعير غليون جاره

[1]- تمكنت مختلف الفئات الاجتماعية من ارتياد المقاهي يستثنى ضمن هذه العناصر النساء التي لم تتمكن من ارتياد هذا المكان الاجتماعي الجديد كما كان الحال في مقاهي المدن العربية الأخرى، نظرا لوجود تقسيم للمكان خاصة الفضاء العام بين الجنسين في إطار الحفاظ على الأخلاق والمصلحة العامة، لذا كان المقهى قطبا للتواصل الاجتماعي الرجالي، وحتى بالنسبة للمغنيين والموسيقيين يمكن تحديدهم أنهم من الرجال، بينما اكتفت النسوة بناء على هذا التقسيم بزيارة الحمامات والأضرحة كأماكن اجتماعية توفر لهن التلاقي والاجتماع وتبادل الحديث.

الثري، ...يشرب في إناء يستعمله الجميع"[1]، وهذا نص يوضح دور المقهى في إلغاء التراتبية الاجتماعية والتهميش الذي كان ينطبق على الجانب السياسي والعسكري والاقتصادي، ونميل إلى الاعتقاد بأن هذه الميزة ظلت حبيسة المقاهي في المرحلة الأولى من انتشار القهوة بالمدينة.

دخلت القهوة بعدها منازل الأغنياء الميسورين وقصور الحكام والموظفين الذين حرصوا على طلبها بإلحاح في كل فرصة، نقف على ذلك في مضمون هذه الرسالة: " تبعث لنا... وشوف لنا طرف جبن ...وتبق تبعث لنا رطلين قهوة"[2]، كذلك وجه حميدة ابن الفخار رسالة لقنصل فرنسا يبلغه فيها عن وصول كميات من المواد منها مادة القهوة معبرا عن شكره له وهي مؤرخة في سنة 1796م : "من حميدة ابن الفخار إلى ... قنصل الفرنصيص... والتفاح وصلنا كثر إليه خيرك مع الجفاجر والقهوة"[3] لقد كان إهداء القهوة بين ممثلي الدول الخارجية وحكام وموظفي السلطة السياسية بالجزائر أو مساهمتهم في تسريع عملية إدخالها وإيصالها للمعنيين بالأمر تعبيرا واضحا على وجود علاقات حسنة وطيبة بين الطرفين.

وبطبيعة الحال كان للوضعية المادية هنا دور واضح في عدم انتشار استهلاك القهوة على مستويات واحدة في المجتمع (المنازل) وهو ما خلق لنا حالة من التمييز بين الناس فيما تعلق بنوع المشروبات والمنبهات التي يحتسيها هؤلاء في كل مناسبة وطرق الحصول عليها، فكان مثلا شراء واستهلاك القهوة (المنازل) في البداية متاحا لخاصة المجتمع بمدينة الجزائر وبشكل عام كانت متاحة لجميع أولئك الذين توفروا على إمكانيات مادية ساعدتهم على شرائها وعلى اقتناء أدوات وأواني منزلية خاصة بإعدادها وتقديمها كالبقارج والأباريق التي حرصوا على أن تكون مصنوعة من الفضة أو النحاس، فقد أمر: "حسين باشا والي الجزائر السيد مصطفى باشا داي الساكن في أزمير بقضاء ... وهم بقارج تاع قهوة فضة وأبارق نحاس"[4].

والمؤكد رغم عدم رصدنا للأوعية الذهبية الخاصة بإعداد وتقديم القهوة ضمن الأشياء التي طلب الداي اقتنائها من أزمير التي تعد علامة على الثراء والترف الذي تعيشه بعض فئات مجتمع مدينة

---

[1]- أ. ليسور وولد، **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد جيجلي، دار الأمة، الجزائر، 2002، ص 22.

[2]- المجموعة 1641 الوثيقة رقم 97، المكتبة الوطنية الجزائرية.

[3]- المجموعة 1641 الوثيقة رقم 117،المكتبة الوطنية الجزائرية.

[4]- حددت الوثيقة أيضا عدد بقارج الخاصة بالقهوة والأباريق وحجمهم: " بقارج متاع القهوة فضة كبار وصغار منهم 3، بقارج متاع القهوة نحاس منهم 1". أنظر: المجموعة 3205، الوثيقة رقم 79، المكتبة الوطنية الجزائرية.

الجزائر، إلا أن وجود مثل هذه الأواني في مطبخ ومائدة الحكام والأغنياء يعتبر مؤشرا يدلل على رفاهية هذه الشريحة التي فضلت أن تستمتع بشرب القهوة في منازلها وأن ترتاد أماكن أخرى توفر اللهو والمتعة والأخبار، وفي العادة كانت تنظم هذه المجالس في قصورهم وبيوتهم، ولعل هذه الظروف التي انعدمت في حياة العوام من الناس وتجلت في بساطة مطبخهم ومنازلهم دفعت الكثيرين منهم للإقبال على المقاهي الموزعة على الأحياء والشوارع للتلاقي للحديث والاستمتاع[1]، وبالتالي ساهم الفارق المادي والاجتماعي المبني على معيار المنصب والجاه في حدوث تغيير جزئي في أماكن شرب القهوة بإلغاء فكرة ارتباط تقديم القهوة بالمقاهي وإدخالها إلى المنازل (بياض المجتمع) واعتبارها عادة أساسية في المائدة.

هكذا شاعت القهوة حتى أصبحت مع مرور الوقت مشروبا له تأثيره البالغ على مختلف الأوساط والبيئات الاجتماعية خاصة المدن الكبرى منها مدينة الجزائر، أين بلغت أقصى حدودها في الانتشار بظهور واشتهار المقاهي وفرضت حضورها كمشروب شعبي يتذوقه الجميع مستفيدة من ميزاتها، ومع هذا الانتشار الكبير للقهوة عبر النسيج الاجتماعي بدرجات متباينة حسب موقع ومستوى معيشة كل عنصر من العناصر المكونة لمجتمع المدينة، أضحت القهوة تحمل دلالات رمزية وقيمة اجتماعية تنضوي في مفهومها العام حول اعتبارها عادة أصيلة وممارسة ثابتة ومستمرة الوجود في المجتمع تستلزم آداب الضيافة حضورها في المائدة خلال المناسبات الاجتماعية والسياسية.

1.1.2 الوضعية الاجتماعية لرواد المقهى (الناحية الأخلاقية):

كان للوسط الديني الذي تبنى القهوة (البيئة الصوفية) والدعاية التي أبرزت محاسنها من حيث المذاق وما حققته من نشوة وراحة لمتناوليها، على الرغم من المثالب التي طالتها كمشروب مضر أحد الدوافع القوية وراء إقبال الناس عليها بكثرة على اختلاف عناصرهم حيث كانوا يجلسون للحديث وهم يرتشفون القهوة لمدة قد تصل إلى ساعتين أو ثلاث في اليوم أو أزيد[2]، يلعبون الضامة، والشطرنج ويستمتعون بالموسيقى والأغاني، ويشربون الدخان[3] والحشيش[4]، لكن هذه الأنشطة الترفيهية التي ميزت المقهى باعتباره مقصدا للتنفيس عن الاحتياجات والرغبات الاجتماعية جعل البعض ينظر إليه

---

[1]- ناصر أحمد إبراهيم، "آداب وطقوس شرب القهوة في القاهرة العثمانية"، **مجلة حوليات إسلامية**، العدد 1/48، 2014، ص ص 232- 233.

[2]- Dan, op cit, pp 282, 283.

[3]- أ. ليسور وولد، مصدر سابق، ص 22.

[4]- هانيريش فون مالتسان، **مدخنو الحشيش في الجزائر**، ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص 9.

على أنه مكان يجتمع فيه أنذل الناس بالمجتمع الذين ارتكبوا العديد من المنكرات المخالفة لقواعد السلوك في المقاهي كشرب الخمر ليلا[1] وهو ما أدى إلى التقليل من أهمية المقهى برأيهم إذ كان ذلك عاملا جتناب الناس المهذبين والذين يتمتعون بمكانة اجتماعية ميسورة لهذا المكان.[2]

وقد يظهر أن طبائع رواد المقهى وأخلاقهم وحتى ظهور المقهى وتحوله لظاهرة اجتماعية جديدة في الفضاء العام بالمدن لم يحظ بالأهمية البالغة لدى المصادر المحلية التي أحجمت عن ذكره باستثناء كتاب قانون أسواق مدينة الجزائر لعبد الله الشويهد الذي رصد أسعار وقيمة الرسم الجمركي المفروض على مادة القهوة كسلعة غذائية متداولة بشكل طبيعي في الأسواق المحلية[3]، مع ذلك نلاحظ أن الوثائق الأرشيفية قد غطت إلى حد ما هذا الجانب بإشارتها سواء إلى استيراد مادة القهوة من طرف الحكام والموظفين وكميات البن التي كانت تدخل إلى الموانئ وغيرها، ما ساعدنا في الوقوف على حقيقة ما جاء على لسان هاينريش فون مالتسان الذي ربط بين نوعية الزبائن وفسادهم وكيف قلل ذلك من مكانة المقهى لدى بعض الفئات التي رأت فيه مكان غير مناسب لها للاستمتاع وشرب القهوة.

وقد عبرت الرسالة الموجهة من الحاج أحمد باي قسنطينة إلى الداي حسين بتاريخ 31 جمادى الأولى 1243هـ/ 1828م عن خطورة المقاهي بعد أن أضحت مرتعا وملجأ ومخبأ لمجموعة من المجرمين والهاربين من العدالة الذين أواهم الجند القهواجية حيث حالوا دون إلقاء القبض عليهم، وتعتبر حالة هذا اليولداش الفار إلى أحد مقاهي عنابة نموذجا لحالات كثيرة بالمدن الأخرى في مقدمتها مدينة الجزائر، ومما جاء فيها: " وأن القهوة كل من يهرب إليها ينجوا وانحل الأمر بسبب ذلك... وأن يولداش كثر فساده في أولاد الناس وضرب امرأة في الزنقة بطغان فجرحها فدخل وهرب للقهوة وأراد الشاوش عسكر فقام بعض اليولداش في القهوة ومنعه من يده ولما بلغني أمره بعثت إلى اليولداش وجاءني مربوطا وهو عندي مربوطا إلى الآن"[4]، ولم يتوقف الأمر هنا بل قام آغا النوبة بعدما ألقي القبض على

---

[1]-J. Deny, **Chansons des Janissaires Turcs D'Alger (Pin(FIN) du XVIII Siécle)**, p89.

[2]- هانيريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا**، المجلد 3، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص 117- 118.

[3]- يذكر عبد الله الشويهد أن ما يؤخذ من رسوم عن كل قنطار من القهوة سنة 1748م بموافقة تجار مدينة الجزائر والعسكر ب 6 صايمات للقنطار. **للمزيد انظر**: عبد الله بن محمد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر**، تحقيق: ناصر الدين سعيدوني، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012، ص 46.

[4]- المجموعة 1642، رقم الوثيقة 24، المكتبة الوطنية الجزائرية.

المتهم بإرسال عدد من اليولداش إلى الباي طالبين " أن نحشم منهم ونطلقه"[1]، وهذه الرسالة تؤكد ما ذكره مالتسان حول المقاهي التي كانت مقصدا لمجموعة من المشاغبين والمتجاوزين للقانون بالمدن بصفة عامة.

ونستقرأ من خلال الرسالة السطوة التي وصل إليها الجند الذين بلغوا من القوة ما يخولهم إلى منح حمايتهم والأمان للهاربين من العدالة دون إعطاء أهمية للقرارات والأحكام الصادرة من طرف البايات والحكام، جاعلين من المقاهي حصنا منيعا يحرم على الموظفين التابعين للسلطة انتهاكه في كل الظروف، معتمدين على قوتهم العسكرية وتأثيرهم السياسي الذي تهابه وتتخوف منه السلطة الحاكمة، وبهذا كادت المقاهي في أهميتها وخطورتها تضاهي مكانة أضرحة وزوايا المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية التي حظيت هي الأخرى بهذا الامتياز الذي نص على عدم المساس بمن يلجأ إليها فرارا من القانون[2]، باعتباره مكانا مقدسا من الناحية الروحية والدينية، لكن هذا لا يعني الجزم الكلي بفساد الجند وحصر زبائن المقهى بفئات اجتماعية منحدرة من العوام ومقترنة بالانحراف الأخلاقي لما فيه من إجحاف وتحامل على روادها وتعتيم لدور المقهى الاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي.

2.2 ظهور المقاهي بمدينة الجزائر (وظائف متعددة):

1.2.2 البعد الاجتماعي للمقهى:

واصل المشروب الجديد نجاحه الكبير بظهور المقهى الذي تمكن من فرض مكانه الخاص على الفضاء العام بالمدن الجزائرية، يظهر ذلك جليا في عدد المقاهي المنتشرة بالمدينة حيث بلغت 60 مقهى في الحي العربي وحده[3] ما جعلها من أبرز الأنشطة الحرفية في المجتمع الحضري بالمدن خاصة مدينة الجزائر[4]، وهذا المجال ساعد المشروب الجديد على الحد من توسع القاعدة الاستهلاكية للدخان

---

[1]- المجموعة 1642، رقم الوثيقة 24، المكتبة الوطنية الجزائرية.

[2]- حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تحقيق: محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005، ص 73.

[3]- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830- 1855**، الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 35.

[4]- تناولت الباحثة جميلة معاشي في دراستها للإنكشارية والمجتمع بباليك الشرق بالاعتماد على عقود المحاكم الشرعية النشاط الحرفي الذي مارسته هذه الفئة، وقد رصدت في خضمها مهنة القهواجي التي أقبل عليها الإنكشارية بكثرة لاعتبارات ربحية بالدرجة الأولى، وانعكس ذلك بشكل لافت في قيمة الصداق المرتفع الذي قدم من قبل ممتهني حرفة بيع القهوة عند زواجهم. أنظر: جميلة معاشي،

والشاي اللذين أصبحا من المواد المستحدثة التي قدمت بشكل ثانوي في المقاهي بعد القهوة خاصة الشاي.

وعلى العموم تميزت وظائف المقاهي بالتعدد والتباين الذي عكس أهميتها ضمن المرافق العامة الأكثر انتشارا وتأثيرا في المجتمع، فقد تخصصت في تقديم القهوة لروادها مع توفير أساليب الراحة والاستمتاع لجذبهم وإزالة الملل عنهم بهدف الحفاظ على استمرار نشاطها، فعمدوا لتنويع الخدمات المقدمة للزبائن من خلال توظيف شخص يسمى الموسيقار، أي الذي يعزف ويغني لرواد المقهى مزيجا من الأغاني والموسيقى الشعبية والعسكرية الخاصة بالجندو الموسيقى الأندلسية[1]، وبالرغم من أننا لم نعثر على ما يشير لاستحداث وظيفة خاصة بالحكواتي مثلما كان منتشرا في معظم مقاهي الإيالات الأخرى، إلا أن أ. **ليسور وولد** قد ذكر أن الموسيقار عوض هذا الفراغ حيث كان أحيانا يلقي بعض القصص المضحكة على المستمعين[2]، ويستحب أن يكون على دراية بالأخبار الحاصلة، كما قدمت عروض خاصة بعرائس القراقوز وهو نوع من العروض المسرحية ترافقها الموسيقى والمعزوفات، للترفيه على الجند والزبائن.[3]

لا ريب في أن هذه الخدمات المقدمة جعلت الناس ينظرون إلى المقهى على أنه جزء لا يتجزأ عن حياتهم اليومية وعن جو الفضاء العام، إذ وفر لهم كل الاحتياجات الضرورية التي تمكنهم من الاسترخاء والتواصل، وهو ما جعله أحد المجالات الشعبية المرغوبة والأكثر شهرة في المرافق العامة التي تجذب الزبائن، فأدت هذه الشعبية المتزايدة بسبب الطلب المتزايد على القهوة إلى زيادة أجور ودخل المشتغلين بصنع وبيع القهوة، نلمس ذلك في استثمار القهوجية في المجال العقاري حيث أشارت القصيدة إلى امتلاك صاحب مقهى لمزرعة يعمل بها نحو 700 فلاح[4]، وربما هذا الأريحية المادية غيرت معطيات اقتصادية أخرى مرتبطة مثلا بزيادة متفاوتة من فترة إلى أخرى فيما تعلق بثمن كراء وإيجار

الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة ، الجزائر، 2007- 2008، ص 170.

[1]- أ. ليسور وولد، مصدر سابق، ص 22.

[2]- نفسه، ص 22.

[3]- وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعليق وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 122- 123.

[4]- Deny, op cit, p 89.

المحال التجارية خاصة تلك التي ستحول إلى مقاهي، فكان الراغبين في كرائها مستعدين لدفع ثمن أعلى مقابلها.[1]

لكن في المقابل نجهل تفاصيل أكثر عن طريقة البيع والأسعار التي حددت لهذه المحال، وسعر القهوة قبل تحميصها وطحنها وإذا ما كانت عملية التحميص والطحن لحبات القهوة تتم في المقهى أو محلات أخرى خاصة بهذا الغرض، ومن هي الجهة التي اختصت بالتحميص والتوزيع، ولعل هذا الغموض يعود إلى غياب تنظيمات حرفية متخصصة في إدارة وتسيير شؤون القهوة والمقاهي بمدينة الجزائر وهو الأمر الذي لاحظته غطاس عند دراستها للحرف والحرفين بمدينة الجزائر، بالرغم من استحداث السلطة العثمانية لهذا المنصب الإداري في بعض الإيالات العربية الأخرى التي عرفت ظهور تنظيمات مهنية تشرف على شؤون القهوة والمقاهي بدء من منتصف القرن 17م.

ومن أمثلة ذلك ظهور طائفة القهوجية بالقدس أو ما تسمى بنقابة صانعي القهوة والبائعين التي كان على رأسها شيخ القهوجية الذي يعينه القاضي[2]، وتتمثل مهامها في وضع المقاهي تحت رقابة الوالي والقاضي للحفاظ على الأخلاق العامة وعدم مخالفة أمور الشرع في المدينة، وضبط أسعار فنجان القهوة ونشره على الملأ من قبل القاضي لمنع أي تلاعب في أثمانها، والحفاظ على النظافة[3].

كما لا نعرف أيضا، ما هي الأسباب التي دفعت السلطة بالجزائر لعدم تخصيص أمين خاص بحرفة القهوجية كحال باقي المهن الأخرى؟، على الرغم من وضوح فاعلية وأهمية هذا التنظيم بمدينة القدس. ويمكن أن نفترض أن السلطة اعتبرتها من الحرف الحرة التي لم تر ضرورة لتنظيمها ومكتفية في ذات الوقت بفرض رسوم جمركية على كميات القهوة المستوردة، أو أنها أدرجتها ضمن صلاحيات بعض

---

[1]- Amnon Cohen, **the Guilds of Ottoman Jerusalem**, brill, Leiden; Boston; Köln, 2001, p56.

[2]-Ibid, p54.

[3]- قام القاضي بإشراك رئيس النقابة وباقي أعضاء نقابة القهوجية في توجيه تحذير مباشر لجميع حاملي البن (المزاولين لنشاط بيع القهوة) بضرورة تحمل مسؤوليتهم لضمان الإمداد المنتظم للقهوة بمدينة القدس، ليتم بيعها بأسعار معقولة وثابتة في أحد المتاجر في سوق التجار. أنظر:

- Cohen, op cit, p54.

الموظفين أمثال أمين العطارين[1] أو المحتسب نظرا لطبيعة وظيفته التي تشمل مراقبة أسعار السلع في الأسواق وحفظ الأخلاق العامة.

وعلى العموم، كشف المقهى عن تحولات أخرى هامة في أدوار ووظائف المؤسسات والهياكل الاجتماعية في الفترة المدروسة، حيث اضطلع بمهام عديدة نافس بها المؤسسات التقليدية التي شكلت لأمد طويل مجالا للقاء والاجتماع ولتفاعل بين مختلف شرائح المجتمع (المسجد، الحمام، السوق). حيث أشرفت على تنظيم العلاقات الاجتماعية، وقد بدأ ذلك التغير جليا بمجرد انتشار المقاهي في مواقع قريبة من وسط المدينة أين تتركز أبرز الفعاليات الاقتصادية والمؤسسات الكبرى السياسية والعسكرية، والدينية فجاورت المساجد والحمامات والأسواق الكبيرة وهو ما أعطى للعلاقات الاجتماعية والحياة الجماعية والقيم السلوكية المتعارف عليها مفهوما مغايرا بتجاوزه النسبي لفاعلية الجامع ودور الحمامات العمومية[2] في إرساء عادات وقواعد تنظيمية جديدة للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والقضائية على الرغم من بطئ هذا التغير الذي استغرق فترات زمنية طويلة، إذ أصبحت بعض المقاهي بالجزائر ملتقى لإنجاز بعض الأعمال كعقد الصفقات التجارية[3] وعقد الجلسات القضائية للمجلس العلمي للفصل في النزاعات مثلما حصل بأحد مقاهي مدينة المدية عاصمة بايلك

---

[1]- Tachrifat, **Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger**, publié par A. Devoulx, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1852, p 23.

[2]- ريمون، مرجع سابق، ص 172. شهدت المدن العربية الخاضعة للسلطة العثمانية في عمومها هذا التغيير بانتقال المقاهي في دمشق من أطراف المدن إلى مركزها ويظهر ذلك في قول بريت مرينو نقلا عن رينود: "كانت المقاهي في دمشق في القرن 18م موجودة بجانب حدائق صغيرة والمياه المتدفقة وبعد مرور السنوات اقتربت من المدن وأصبحت توجد بجانب المساجد والحمامات وأصبحت كل المقاهي معروفة بالنرجيلة". أنظر:

- Brigitte Marino, "cafés et cafetiers de dans aux XVIIIe Siècle", **Revue Du Monde musulman et de la méditerranée**, N°75 – 76, 1995, p 244.

[3]- أحمد سلطاني،" الحوانيت والمرافق العامة في مدينة الجزائر العثمانية"، **الحوار المتوسطي**، العدد 7، ص 318.

التيطري[1]، ويمكن أن نقيس هذا النص على مقاهي مدينة الجزائر بحيث لا نستغرب حدوث هذا التحول الذي جعل بيوت القهوة على قدر كبير من الأهمية في حياة الفرد والمجتمع.

و إذا كانت المقاهي قد انتشرت بأهم المناطق الحيوية في تخطيط مدينة الجزائر، فمن دون شك أنها زاحمت مرفقا آخر وفر عنصر اللهو لمرتديه، حيث نرى بناء على الأهمية التي أصبحت عليها المقاهي وعددها الذي كان مرتفعا دون شك في مدينة الجزائر وحدها في القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي أنها أفقدت الحانات مكانتها أيضا والتي قدرها الأسير كاثكارت ما بين 27 و 30 حانة[2]، ففي الوقت الذي انتشرت فيه المقاهي بالشوارع الكبرى وفي كل الأحياء بقت الحانات خارج أسوار المدينة ويمكن الافتراض أن اشتهار المقاهي ومشروب القهوة وشيوع استهلاكها بين الناس قد ساعد على هذا الانتقال الذي كان مرتبطا لحد بعيد بنمو المجال الحضري وازدياد متطلبات الترف والرفاهية عند سكان مدينة الجزائر الذين سعوا لتقليل من الضغوطات اليومية التي يعيشونها، وبالتالي تمركزت المقاهي بشكل واضح حول المناطق الرئيسية بالدرجة الأولى، يتعلق الأمر هنا ربما بالمقاهي ذات الحجم الكبير التي تستقبل عددا كبيرا من الزبائن، بالإضافة للمقاهي الصغيرة التي انتشرت بدورها بين الأحياء والشوارع الصغيرة.

2.2.2 البعد السياسي للمقهى: هل أدى المقهى دورا سياسيا بمدينة الجزائر؟

إن هذه الأهمية التي بلغتها المقاهي باعتبارها نموذجا حقيقيا لتطور الخدمات والمرافق العامة بالمدينة، يقودنا للتساؤل حول ما إذا ساهمت المقاهي في بناء مواقف سياسية معارضة لسلطة في المجتمع؟

يبدو لنا جليا أن المقهى قد تجاوز وظائفه التي اكتسبها كمرفق موجه للتواصل الاجتماعي ولتوفير الراحة والمتعة لمرتاديه بالمدينة في العهد العثماني بتحوله لمكان تناقش فيه القضايا السياسية خاصة من طرف الجيش الإنكشاري إذ دفع المجتمع نحو مسارات جديدة، فكان هذا النشاط سببا في غلقها من قبل الدولة العثمانية في عقر دارها والتي رأت فيها تهديدا لوجودها واستمرار كيانها السياسي، فهل انتقلت هذه المخاوف إلى ايالاتها في الحوض الغربي للبحر المتوسط؟

---

[1]- ودان بوغفالة، **أوقاف مليانة والمدية في العهد العثماني – دراسة في النشاط الاقتصادي والبيئة الاجتماعية والحياة الثقافية**، دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر، 2006 – 2007، ص 115.

[2]- جيمس برنارد كاثكارت، **مذكرات أسير الداي كاثكارت " قنصل أمريكا في المغرب"**، تقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 101.

يظهر من خلال تتبع نشاط المقاهي عبر فترات زمنية متفرقة في مدينة الجزائر أنها كانت بمنأى عن الإجراءات القاضية بمنع وغلق وتعليق نشاطها في الدولة العثمانية، بحيث لم نقف على أي قرار صادر في هذا الشأن بالمدينة، ولعل ذلك راجع إلى أسباب سياسية الغاية منها شراء السلم مع الانكشارية الذين فرضت عليهم طبيعة أعمالهم العسكرية التي أبعدتهم عن الحياة الطبيعة البحث عن منافذ للراحة تقلل من تلك الضغوطات النفسية التي يعيشونها خلال الحروب وداخل الثكنات، فكانت الخمارات والمقاهي أحد أهم الأماكن التي وجد فيها الجند متنفسا للراحة والاسترخاء والتسلية بقطع النظر عن الموقف الديني من هذه الأماكن، وهو ما يمكن أن يفسر سماح الحكام باستمرارية فتح المقاهي لاحتواء ما قد ينجم من تصرفات وممارسات من الجند تفضي إلى الفوضى.

أما السبب الثاني فهو مرتبط بالنشاط الاقتصادي للجيش الإنكشاري فقد كان هؤلاء من أهم العناصر الاجتماعية التي امتهنت حرفة القهوجية[1]، وبناء على هذا وجدت السلطة نفسها ملزمة بعدم الاصطدام مع الجند الذين كانت لهم نزعة وميول واضحة لممارستها نظرا لما تدره من أرباح مادية ممتازة[2]، لذا، سينظر الجيش المزاولين للحرفة بمختلف رتبهم وباقي عناصر الأوجاق كرواد دائمين لها لأي خطوة مماثلة تؤدي لإغلاق أماكن بيع القهوة محاولة لقطع مصدر استرزاقهم والحيلولة دون مصادر إثرائهم، وبالتالي تهديد وجودهم والتضييق عليهم، بل تهميشهم من حيث لعب دور بارز في الحياة الاقتصادية، وهو ما سيؤدي حتما لسخط وغضب في أوساط الإنكشارية وربما قد يصل الأمر إلى ثورتهم ضد السلطة القائمة التي أصدرت القرار.

فقد رأت السلطة الحاكمة في استمرار نشاط المقاهي وسيلة تحد من فوضى محتملة يقوم بها الإنكشارية، وكان هذا التصرف من قبل الحكام متماشيا مع السياسة العامة التي استهدفت الحفاظ على استمرارية نفوذهم من جهة، وللحفاظ على الاستقرار المادي للعسكر القهواجية والإنكشارية بصفة عامة ولإرضائهم كأولوية لسيطرة عليهم من جهة أخرى. وهنا نتساءل إذا ما ساهم هذا الوضع القائم على انتهاج سياسة اللين مع الجند في إبعاد الانكشارية عن الاهتمام بالحياة السياسية؟ وبالتالي منع تحول المقاهي لمجال للحديث عن السياسة ونظام الحكم بالجزائر عموما.

وعلى ما يبدو، أن إنكشارية الجزائر قد أبانوا عن طموحاتهم السياسية منذ الفترات الأولى من الوجود العثماني بالجزائر، فالدلائل التاريخية تثبت ضلوع الانكشارية في عدم استقرار نظام الحكم بكثرة ثوراتهم التي كثيرا ما كانت تنتهي بقتل الحكام أو عزلهم، وقد أدلى حمدان بن عثمان خوجة

---

[1]- عائشة غطاس، **الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر 1700–1830م– مقاربة اجتماعية اقتصادية**، دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج 1، جامعة الجزائر، 2000 – 2001، ص 300.

[2]- Deny, op cit, p 88- 89.

بدلوه في هذا الجانب حيث استعرض بين ثنايا كتابه العديد من العبارات التي توحي بتعاظم نفوذ الجند وفسادهم في تعيين وعزل الحكام، ومن ذلك قوله: "... هكذا صارت الميليشيا المسلحة التي لا مبدأ لها ترتكب المخالفات ضد البدو والقبائل، ثم قام هؤلاء البؤساء بإشعال الثورات وقلب قادة الدولة حسب هواهم...، لقد جعل الثائرون على رأسهم أحمد خوجة، ودبر المؤامرة ... ، وتجمعت الميليشيا فحطمت عظمة الداي مصطفى ... "[1].

مما لا يدعونا للشك هنا، أن هذه الثورات والمؤامرات كانت تحاك في أماكن إقامة الإنكشارية التي تعرف بالقشلة أو بدار الإنكشارية، أو دار العسكر، إذ شكلت مع مرور الوقت تهديدا حقيقيا ضد بقاء الحكام في مناصبهم، والتي كانت كثيرا ما تنطلق منها التمردات التي تنتهي بقتل أو عزل من كان على سدة الحكم، لكننا نستبعد أن تكون الثكنات المكان الوحيد الآمن الصالح لترتيب الدسائس ونقد السلطة، حيث نرى في المقاهي مجالا ملائما للحديث عن التطورات السياسية التي ليس بالضرورة أن تتحول إلى نشاط منظم، نستند في بناء هذا الرأي على محتوى ومناقشات عروض القراقوز التي كانت تعرض رسائل ناقدة في الجانب السياسي وقلدت بعض الموظفين السامين إلى جانب إلقاء النكات المضحكة[2] تحت أنظار الجند المرتادين للمقاهي، وربما كانت هذه العروض تتم بإيعاز وإشراف من بعض الجند الإنكشارية الذين امتهنوا حرفة القهوجية أو سمحوا بعرضها ومناقشاتها، وباعتقادنا أن هذه العروض الناقدة للوضع والساخرة من الحكام عبرت عن موقف الكثيرين من الجند وفئات أخرى من المجتمع غير الراضين بالأوضاع السائدة، وبذلك يمكن أن نعتبر عروض القراقوز بالمقاهي في هذا الشق إحدى وسائل التحريض التي ربما وصلت في بعض من الأحيان لثورات قادها الجند ضد السلطة.

ليس هذا فقط، بل نرى أن الميزة الاجتماعية للمقاهي قد ساعدت على تبادل الأخبار وتناقلها حول مختلف الجوانب التي تهم الناس سواء كانت معلومات صحيحة أو مغلوطة وربما تكون هذه الجزئية أكثر الأمور التي جذبت إليها الزوار على اختلافهم الراغبين في تقصي الأحداث وتتبع التطورات الحاصلة داخل وخارج أسوار مدينة الجزائر.

فعلا يمكن أن نلحظ جليا كيف استأثرت المقاهي وهيمنت على الفضاء العام بمدينة الجزائر أين أضحت مقصدا لملئ الفراغ ومطلبا للتسلية واللهو ومنفذا لتمرير الكثير من الأخبار، وبهذا الدور غطت على النشاط الإخباري لحوانيت الحلاقة التي كانت هي الأخرى تعج بالزبائن الذين يذهبون إليها من

---

[1]- بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص ص 111- 112.

[2]- سبنسر، مرجع سابق، ص 123.

أجل الحلاقة ولسماع الأخبار والحكايات الجديدة، ويقول هاينريش فون مالتسان أن هذه الأخيرة تمكنت رغم المنافسة الشديدة من المقاهي كمجال جديد لنقل الأخبار وتبادل أطراف الحديث من الحفاظ على مكانتها حيث ظلت مقصدا للفئات الاجتماعية المرموقة والثرية على عكس بيوت القهوة[1].

والسؤال الذي يفرض نفسه، هل ساهم احتكاك السكان خاصة فئة الحضر بالجيش الانكشاري في المقاهي في بناء موقف سياسي ضد السلطة؟ ففي الواقع نعتقد أن سكان مدينة الجزائر خاصة فئة الحضر كانوا من بين الفئات التي قصدت المقاهي ولو بشكل غير منتظم ودائم، وقد ساعدتهم هذه الزيارات على الوقوف على أهمية المقهى كمجال تروج فيه الأخبار الجديدة والقديمة والإشاعات المنتشرة بالمدينة في شتى مناحي الحياة، لكن على ما يبدو لم يقوموا باستغلال ما دار من مواضيع هامة في شأنها المتعلق بالتطورات السياسية الحاصلة بالمدينة ضد السلطة، إذ كانت مثل هذه القضايا خارجة عن اهتمامهم[2]، والراجح أن ارتيادهم للمقاهي جاء للاستمتاع والمتعة ولكسب هذه الأخبار بهدف إشباع فضولهم لا أكثر.

على العموم فإننا نستنتج في خضم ما قلنا أن المقهى كمرفق عام حديث النشأة بتلك الامتيازات قد أدى حتما ولو هامشيا إلى حدوث تقارب وتفاعل بين الممارسين لحرفة القهوجية في المجتمع والذين كان أكثرهم من فئة الجيش الإنكشاري، فكانت هذه اللقاءات الدورية التي يحدث فيها الاحتكاك بين مختلف الفئات من بين العوامل التي نرى أنها حسنت ولو نسبيا طبيعة العلاقة المتوترة بين الجند وباقي السكان أو قللت من حدتها.

وفي ختام حديثنا عن مظاهر شرب القهوة في المجتمع من الضرورة لفت الانتباه لقلة المعلومات حول الفترة التي راجت وغزت القهوة المجال الريفي، وكل ما رصدناه من معطيات لاستهلاك القهوة تحدثت عن تجاوزها لأعتاب المقاهي والشوارع وانتقالها للمنازل لا يتعدى حياة المدن في مقدمتها مدينة الجزائر التي مكنتها خصوصياتها من جمع عدد كبير من العناصر البشرية المتنوعة اثنيا حيث حظيت بتذوق هذا المشروب خلال فترة تواجدها بما في ذلك فئة البرانية، ليبقى تاريخ اقتحام القهوة للمجال الريفي غير محدد في ظل سكوت المصادر، والراجح أن فئة البرانية قد ساهمت في انتشار القهوة في مناطقهم الأصلية بعد عودتهم إليها تدريجيا وبشكل محدود في البداية لاعتبارات كثيرة تتعلق بأسعار القهوة المرتفعة وتصنيفها كمادة ترف خاضعة للرقابة الجمركية واحتكارها من طرف التجار الأجانب خاصة اليهود، لتنتشر فيما بعد بصورة واضحة مع الحقبة الفرنسية في هذا المجال.

---

[1]- مالتسان، مصدر سابق، ص 118.

[2]- بن عثمان خوجة، مصدر سابق، ص 112.

كان إذن لاستفحال ظاهرة شرب القهوة من قبل عامة الناس وخاصتهم من ممثلي السلطة السياسية وحتى بعض الفقهاء دور في بروز جبهة معارضة لهذه المواد الاستهلاكية المستحدثة، ما أدى لإثارة جدل فقهي بين مجتمع الفقهاء، فمنهم من أخذ موقفا محرما والبعض الآخر أفتى بحليته مبينا منافعه ونافيا ما ورد على يد الرافضين من مزاعم بحسبهم تتحدث عن مضاره.

3. القهوة بين ثنائية الحلية والحرام:

لقد سعى الفقهاء في الجزائر كغيرهم من علماء البلاد الإسلامية لتنظيم الحياة الاجتماعية بما يفرضه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بناء على تلك المكانة التي حظيت بها كفئة تمثل النخبة العالمة والمثقفة حيث اضطلعت بمهام وأدوار هامة وعديدة منها مهمة تصويب سلوكات الفرد التي تتعرض للتغير خاصة وأن العامة كانت تقلد الفقهاء، وعلى هذا الأساس تفاعل الفقهاء مع ما استجد من مستهلكات جديدة وهو ما تعكسه الأجوبة والمصنفات الفقهية التي خصصت جزء هاما لهذا الموضوع.

ورغم الإقبال الواسع على شرب القهوة بين الناس سواء في المقاهي أو البيوت وتحولها لعادة أساسية في الضيافة وفي المناسبات الاجتماعية والسياسية، فإن الجدل القائم حول حليتها وحرمتها ظل قائما حتى مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، وما يهمنا هنا الإشارات التي تدل على وجود هذا الارتياب والانقسام بين الفقهاء في الفترة المدروسة، وكمثال عن ذلك ما جرى من مناقشات بين العلماء والحاضرين بالمجلس العلمي بمدينة الجزائر وأبو راس الناصري سنة 1799م[1] حول موقف الشرع من شرب القهوة باحثين من خلالها عن رخصة شرعية تفيد بحلية شربها أو عن الأسباب التي تجعل منها مشروبا محرما يجب تركه، وبناء على هذه الأسئلة أفرد أبو راس الناصري العديد من الأجوبة مستعينا بما ذكره علماء المشرق والمغرب في الموضوع.

1.3 أدلة إباحة القهوة:

وعليه، فقد استعان أبو راس الناصري في إجابته في تحريم القهوة من عدمها بقول الشيخ علي الأجهوري المالكي المذهب (توفي 1656م) الذي وضح في البداية اختلاف الناس حولها بين منحاز لحليتها وبين من بلغ درجة المغالاة في تحريمها، وبرر هؤلاء موقفهم المحرم للقهوة بتشبيهها بالخمر من حيث كونها تحتوي على مادة مسكرة[2]، وهو الأمر الذي فنده الأجهوري مشددا على خلو القهوة في ذاتها من

---

[1]- محمد أبو راس الناصر، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، حققه. ضبطه، علق عليه: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 159.

[2]- أبو راس، مصدر سابق، ص 159.

أي مادة مسكرة أو مخدرة، واعتبر هذه التشبيهات بين القهوة والخمر من حيث الأوصاف باطلة ولا تكفي لمنع وتحريم شربها، وإنما فيها ما ينشط النفس، وهو ما يؤثر على البدن بعد تركها[1]، كما ذهب الشيخ إبراهيم بن جمعان للقول بإباحتها على اعتبار أنها لا تسبب لآكلها تغييبا للعقل ما لا يمنع ذكر الشهادة عند الموت فضلا عن كونها تحتوي على فوائد علاجية للكثير من الأمراض المنتشرة[2]، خاصة من كان بلغميا فإنها توافقه[3]، وبالتالي فهي غير ضارة، و لا يقتضي الأمر تحريمها.

ويبدو أن هؤلاء الذين أفتوا بتحليل شرب القهوة أو لم يستنكروا احتساءها، نافين في ذات الوقت أن تكون مسكرا أو مفترا كانوا من شاربي القهوة والمدمنين عليها في حالات أخرى، وربما كانت تجربتهم الشخصية في شرب القهوة وملاحظة ما ينجم عليهم من آثار أحد الأسباب التي جعلتهم يرون في تحريمها أمرا مبالغا فيه في ظل غياب نص شرعي صريح في الأمر من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون لبعض هؤلاء العلماء خلفية صوفية أو كانوا متأثرين بهذا التيار، وربما كانوا مدعومين بشرائح اجتماعية خاصة من العوام المخالفين للأحكام التي تستنكر أو تحرم أو تمنع شرب القهوة أو ارتياد المقاهي.

2.3 أدلة تحريم القهوة:

وبالرغم من وجود فئات اجتماعية داعمة لشرب القهوة وارتياد المقاهي إلا أنه في نفس الوقت كانت هذه البيئة الاجتماعية الحاضنة لهذا المشروب في حالة ترقب لردود العلماء المشككين في شرعيتها من الناحية الدينية، وعلى ما يبدو أن هناك اعتبارين أساسيين استند عليهم هؤلاء كمرحلة أولى لبناء موقفهم الرافض للقهوة والمتمثل في كون القهوة من المشروبات الجديدة، وبالتالي يجب تركها لعدم وضوح موقف النص الشرعي والفقهاء حول قبولها أو اجتنابها[4]، وعلى هذا الأساس أصدرت مجموعة كبيرة من الفتاوى التي تندد بشرب القهوة، أما الاعتبار الثاني الذي أدى للخلاف بين العلماء يرجع إلى انتشار استهلاك القهوة والترويج المتزايد للمقهى بالنسبة للبعض[5]، ولأصول شرب القهوة التي بدأت

---

[1]- نفسه، ص 159.

[2]- نفسه، ص 160.

[3]- نفسه، ص 160.

[4]- Edward. J. Keall, "Ralph S. Hattox, Coffee and Coffeehouses: the Origins of a Social Beverage in the Medieval near East", Material **Culture Review**, 47(1), 1998, p 107.
https//:journals.lib.unb.ca/index.php/MCR/article/view/17767.

[5]- Ibid, p 108.

كعادة مع مجموعة من الصوفيين في اليمن، في حوالي منتصف القرن 15م وبداية القرن 16م حيث استخدموا خصائصها المحفزة لتعزيز قدراتهم الجسدية لتحمل السهر وإذهاب النوم من أجل العبادة[1].

إذن كان استعمال الصوفيين للقهوة ومساهمتهم في نشرها في مختلف البلدان الإسلامية وموقفهم الذي رأى بأن استعمالها لا يخالف الشرع محل جدل شديد من العلماء على اختلاف مذاهبهم الذين لم يعترفوا بموقفهم في حين سعوا لإصدار أحكام فقهية تجيز شرب القهوة أو تحرمها كحكم الخمر والحشيش وبقية المستهلكات الأخرى المثيرة للجدل كالدخان والشاي[2].

ففي سياق ذلك، جاءت دعوى القائلين بتحريم القهوة أو بكراهتها بإثبات ما يقع من ضرر على شاربها معتمدين على القياس في ظل انعدام وجود نص شرعي يفصل في إباحتها من تحريمها، وتأتي الأضرار الصحية في مقدمة أدلة التحريم التي قسمها الفقهاء إلى شقين:

1.2.3 الأضرار العقلية: يرى هؤلاء أن القهوة تندرج ضمن المنهي عن شربها باعتبارها من المفسدات للعقول لاحتوائها على مادة مفترة ومسكرة مثلها مثل الخمر، وإن لم تتشابه في جميع الأعراض، إلا أنها تؤثر على أمزجة محتسيها وعلى عقولهم، لذا فهي محرمة[3].

2.2.3 الأضرار البدنية: يعد الشيخ زروق الفاسي المالكي المذهب من أوائل الفقهاء الذين رأوا أن القهوة ليست بمستكره، لكنها تحرم في حالات معينة ترتبط في الغالب بما ينتج عنها من أضرار بدنية وعقلية كمن طبعه الصفراء والسوداء فيتعين عليه اجتنابها[4].

إن القول بتحريم القهوة لم يتوقف على هذه الأدلة التي تعلقت بطبيعة البن بالدرجة الأولى، حيث حرم البعض القهوة على أسس أخرى اقترنت بأماكن وآداب وطقوس شربها، فكان احتساء القهوة على هيئة الخمر وخلطها ببعض المفسدات[5] من الأمور التي استنكرها وحرمها الفقهاء، واشتدت حدة هذا الخطاب عندما توجه أنصارها لبناء أماكن خاصة بالقهوة ضاهوا بها مجالس اللهو والمجون، وقد زينوها بالزخارف والمفروشات وأدخلوا عليها مختلف مظاهر اللهو المنتشرة[6]، بالإضافة إلى حضور

---

[1]- الجزيري، مصدر سابق، ص ص 3، 7.

[2]- حاتم محاميد وحاييم نيسيم، مرجع سابق، ص 50.

[3]- أبو راس، مصدر سابق، ص 159.

[4]- نفسه، ص 160.

[5]- أبو راس، مصدر سابق، ص 160.

[6]- الورتيلاني، مصدر سابق، ص 321.

النساء من الجواري[1] اللاتي لا شك أنهن قدمنا عروضا من الرقص والغناء المثير للعاطفة والأحاسيس أي يتضمن بعض الإيحاءات الجنسية وإن لم نقف على تأكيد واضح في المصادر التي اطلعنا عليها حول حضور النساء على هذه الشاكلة في المقاهي، لكن يبقى احتمالا واردا يحتاج إلى دراسة.

كما يبدو أن حياة المقاهي التي تركن للتسلية واللهو والغناء وتصرف فيها الكثير من الأموال لم تخل من مظاهر شرب الخمر بين زواياها وجنابتها، فضلا عن لعب الشطرنج الذي لم يكن لعبة للتسلية فقط بل تحول في بعض الأحيان لوسيلة للرهن والقمار، وهذه المظاهر عموما جذبت إلى بيوت القهوة (المقاهي) أتباع الأهواء والأراذل من الناس الذين فسدت أخلاقهم[2]، وعلى العموم يمكن أن نلاحظ اختلاف آخر بين الفقهاء المحرمين للقهوة، فالبعض حرمها لذاتها، والبعض الآخر رفع عن البن التحريم مع التحفظ على هذه الهيئة المذكورة التي قدم فيها مشروب القهوة وما صاحبه من الأمور المذمومة التي قدمت تحت مسمى الأنشطة الترفيهية واستوجبت في نظرهم التحريم، وفي خضم هذه الفتاوى دعا أبو راس الناصري الناس للإعراض عن شرب القهوة وتجنبها إلا لضرورة لمنع وقوع العامة فيما يضرهم وفيما فيه شبهة حتى بعدم وجود نص شرعي يحرم أو يحلل القهوة[3].

إذن استندت الأحكام الصادرة بتحريم ارتياد المقاهي والداعية لتركها لكونها جمعت أنواع مختلفة من المفاسد والمظاهر السلبية التي تتنافى مع الشرع والقيم والعادات الاجتماعية والأخلاقية للمجتمع وهي من المسائل التي تناولها الورثيلاني في رحلته مبينا فيها موقف ورأي أهل الفقه في هذه المفاسد حيث تباينت آرائهم بين مادح ومبيح ومذم ومحرم لها، معتمدين في ذلك على معايير محددة وهي حضور النساء، ونوعية الغناء ومعاني ألفاظه، وآلات اللهو والطرب[4]، وتعاطي الدخان الذي حرمه بعض الفقهاء، وعلى هذا الأساس نصح بعدم حضور مثل هذه المجالس التي تتواجد بها هذه الممارسات[5]، وعملا بهذا حرم بعض العلماء القهوة لأنها جمعت بين كل هذه المحاذير.

خاتمة:

---

[1]- يقول الورتيلاني: "يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخرفة لما تخلو من لهو حضور ما لا يحل حضوره من الجواري ... أتباع الأهواء والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة فلا يبعد أن يقال أنها في حق هؤلاء محرمة". نفسه، ص 321.

[2]- أبو راس، مصدر سابق، ص 160.

[3]- نفسه، ص 160.

[4]- الورتيلاني، مصدر سابق، ص 240.

[5]- الورتيلاني، مصدر سابق، ص 239.

لعل أهم ما يمكن قوله أن القهوة من أبرز المستهلكات الحديثة الظهور التي لاقت رواجا وانتشارا كبيرا بين مختلف العناصر البشرية المكونة لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وقد أدت إلى إحداث تغيرات عميقة في العادات والأذواق والأنماط المعيشية والقيم، بل دفعت بالمجتمع نحو حركية شاملة اجتماعية واقتصادية وثقافية ودينية وربما سياسية غير مألوفة، وباختصار تمكنت القهوة من تغيير بعض ملامح الحياة الاجتماعية، وبالأخص المقهى الذي أصبح رمزا وقطبا للتواصل والتفاعل الاجتماعي حيث غير ملامح الفضاء العام ومفهوم التسلية والمتعة باستقطابه لمظاهر جديدة جمعت بين الغناء والموسيقى وتعاطي الدخان، والعروض المسرحية لعرائس القراقوز، وألعاب الشطرنج وغيرها من المظاهر، فساهمت هذه التحولات بمظاهرها المختلفة في فتح باب الاجتهاد من طرف الفقهاء ما أنعش الحركة العلمية ببروز العديد من الفتاوى والمؤلفات الفقهية والمراسلات والمناظرات التي تأرجحت بين حلية شرب القهوة وتحريمها ليتركز هذا الجدل فيما بعد حول الجانب الأخلاقي والسلوكي. كما يمكن القول أن القهوة والمقاهي التي بدأت كمشكلة دينية واجتماعية وأخلاقية قد أصبحت مع القرن الثامن عشر والتاسع عشر ظاهرة حضارية وشعبية استهلكت في المقاهي وبيوت العامة والخاصة بدرجات متباينة.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا- الوثائق الأرشيفية:

1- محفوظات المكتبة الوطنية الجزائرية:

- المجموعة 1641 الوثيقة رقم 97.

- المجموعة 1641 الوثيقة رقم117.

- المجموعة 1642، رقم الوثيقة 24.

- المجموعة 3190، الوثيقة رقم 35.

- المجموعة 3205، الوثيقة رقم E18.

- المجموعة 3205، الوثيقة رقم 79.

ثانيا - المصادر:

1-المصادر العربية والمعربة:

أ- المصادر العربية:

- أبو راس الناصري محمد، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**، حققه. ضبطه، علق عليه: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- بن عثمان خوجة حمدان، **المرآة**، تقديم وتعليق وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005.

- الجزيري عبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي، **عمدة الصفوة في حل القهوة 1501– 1600**، المكتبة الوطنية الفرنسية، رقم 4590. https//:gallica.bnf.fr

- الورتيلاني الحسين بن محمد، **الرحلة الورتيلانية- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008.

- ابن حمادوش الجزائري عبد الرزاق محمد، **كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1996.

- القاسمي جمال الدين الدمشقي، **رسالة في الشاي والقهوة والدخان**، د. د. ن، د. م. ن، 1974.

- الشويهد عبد الله بن محمد، **قانون أسواق مدينة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الذين سعيدوني، البصائر الجديدة، الجزائر، 2012.

ب- المصادر المعربة:

- أ. ليسور وولد، **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد جيجلي، دار الأمة، الجزائر، 2002.

- كاثكارت جيمس برنارد، **مذكرات أسير الداي كاثكارت " قنصل أمريكا في المغرب"**، تعليق وتقديم: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

- مالتسان هانيريش فون، **مدخنو الحشيش في الجزائر**، ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1967.

- مالتسان هانيريش فون، **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا**، المجلد 3، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

2- المصادر باللغة الأجنبية:

-Dan .Père, **R. P. P. Histoire de Barbarie et de ses corsaires**, 2e éd, Paris, 1646.

-Deny.J, **Chansons des Janissaires Turcs D'Alger (fin du XVIII Siécle)**.

-Rozet. M, **Voyage dans la régence d'Alger**, t. 2, Paris, 1833.

- Tachrifat, **Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger**, publié par A. Devoulx, Imprimerie du Gouvernement, Alger, 1852.

ثالثـــا- المراجع :

1-الكتب العربية والمعربة:

أ- الكتب العربية:

- الأرناؤوط محمد، **من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي**، دار جداول، بيروت، 2012.

- دودو أبو العيد، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830- 1855**، المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

ب- الكتب المعربة:

-- بروديل فرناند، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية من القرن 15 حتى 18- الحياة اليومية وبنياتها- الممكن والمستحيل**، ج 1، ترجمة: مصطفى ماهر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.

- جيرار. ب. س، **موسوعة الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر- وصف مصر**، ترجمة: زهير الشايب، ج 1، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ت.

- ريمون أندري، **المدن العربية الكبرى في العصر العثماني**، ترجمة : لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة، 1986.

- سبنسر وليم، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعليق. تقديم: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

2-الكتب باللغة الأجنبية:

1- Cohen Amnon, **the Guilds of Ottoman Jerusalem**, brill, Leiden; Boston; Köln, 2001.

3- الرسائل الجامعية:

- أحمد أحمد عبد الله الخطابي أروى، **تجارة البن اليمني (ق 11- 13هـ/ ق 17- 19م) دراسة تاريخية**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة صنعاء، اليمن، 2004.

- بوغفالة ودان، **أوقاف مليانة والمدية في العهد العثماني – دراسة في النشاط الاقتصادي والبيئة الاجتماعية والحياة الثقافية**، دكتوراه في التاريخ، جامعة الجزائر، 2006 – 2007.

- بيلامي وداد، **اليهود والشبكة التجارية في إيالة الجزائر والحوض الغربي للمتوسط، 1686-1830م**، دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة 2- عبد الحميد مهري، 2017- 2018.

- معاشي جميلة، **الإنكشارية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني**، دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة - الجزائر، 2007- 2008.

غطاس عائشة، **الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر 1700–1830م– مقاربة اجتماعية اقتصادية**، دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج 1، جامعة الجزائر، 2000 – 2001

4- الدوريات:

أ- باللغة العربية:

- أحمد إبراهيم ناصر، "آداب وطقوس شرب القهوة في القاهرة العثمانية"، **مجلة حوليات إسلامية**، العدد 1/48، 2014.

- محاميد حاتم و نيسيم حاييم، "القهوة ما بين التحريم والإباحة: الجدل الديني أواخر العصر المملوكي وبداية العهد العثماني"، **مجلة المجمع**، العدد 13، 2018.

- سلطاني أحمد،" الحوانيت والمرافق العامة في مدينة الجزائر العثمانية"، **الحوار المتوسطي**، العدد 7.

ب- باللغة الأجنبية:

1-Carlier Omar, "Le Café maure. Sociabilité masculine et effervescence citoyenne (Algérie XVIIe- XXe)", **Annales. E.S. C**, Juillet- Aout 1990.

2- Keall Edward. J, "Ralph S. Hattox, Coffee and Coffeehouses: the Origins of a Social Beverage in the Medieval near East", Material **Culture Review**, 47(1), 1998.
https//:journals.lib.unb.ca/index.php/MCR/article/view/17767.

3-Marino Brigitte, "cafés et cafetiers de dans aux XVIIIe Siècle", **Revue Du Monde musulman et de la méditerranée**, N 75 – 76, 1995.

5- المعاجم اللغوية والقواميس:

أ- ابن منظور، **لسان العرب المحيط**، ج 1- ج 5، دار المعارف، بيروت، د. ت.